المحاضرة العاشرة :

ثورات القرن التاسع عشر١٩ م

I. ثورة ابن الاحرش

II. الثورة الدرقاوية

III. الثورة التيجانية

I. ثورة ابن الأحرش

اسمه محمد بن عبد الله الشريف المشهور عند العامة بالبودالي نسبة إلى أبدال الصالحين [i] زعم انه صاحب الوقت وان دعوته مستجابة والنصر يتبعه حينما يتوجه يقال له السيد احمد ابن الاحرش فتى مغاربي مالكي مذهبا درقاوي الطريقة

درعي نسبا جاء لتلك القبائل وادعى انه الإمام المهدي المنتظر كان صاحب شعوذة وحيل مما جعل الناس يتبعونه .

هناك من ارجع سبب قيام الثورة أن الشريف تعرف على بعض القادة الانجليز بمصر فحرضوه على القيام بالثورة إلى جانب ذلك رغبة باي تونس حمودة باشا إلى إحداث عراقيل لحكومة أيالة الجزائر التي كانت على علاقة سيئة معها فاستغل حمودة باشا الفرصة لتحريض ابن الاحرش على الثورة ضدها .[ii]

انتقل ابن الاحرش إلى قسنطينة واتخذها مركزا له ثم انتقل إلى جيجل ونصب نفسه واليا عليها ثم ادعى انه له كرامات من نسب الشريف ليكسب تأييد العامة كما كان ابن الاحرش قرصانا ليستولي على السفن البحرية وبما انه تلقى تعاليم الطريقة الدرقاوية فقد ساعده ذلك في توسيع نفوذه كثيرا.[iii]

وفي صيف سنة ١٨٠٤م أخذ ابن الاحرش يجمع الناس ويحرضهم على حمل السلاح ومهاجمة قسنطينة وقد فشل الهجوم الأول بسبب قلة النظام والانضباط وقد كان الباي عثمان بك باي قسنطينة آنذاك خارج المدينة يقوم بجمع الضرائب وقد ترك خلفه احمد بن الحاج بياض بقيادة قواته لقمع المتمردين وقتل خلالها العديد منهم وتوسع نفوذه بسرعة كبيرة حيث أيده المرابطون وهذا ما ساعد في انتشارها وتأييد الشعب لها وقد وجد الأتراك صعوبة في القبض على ابن الاحرش والقضاء على التمرد كما استعصى عليهم تحريض السكان ضده كانت المدن تسقط في يد ابن الاحرش الواحدة تلو الأخرى. [iv]

ولقد اختلفت الروايات في نهاية ابن الاحرش فمنهم من قال انه اختفى ثم ظهر من جديد محاولا استمالة بعض القبائل في بجاية وجيجل فقام باخر معركة الرابطة التي يقال انه قتل فيها. ويقول احمد الشريف الزهار وضيق عليه البلاد إلى أن هرب إلى الناحية الغربية فقتله ابن الشريف (الثائر بها) وأطفئت نار الفتنة من الناحية الغربية الشرقية .

أولا : أسباب فشل ثورة ابن الاحرش

- عدم تمكن الطرقة الدرقاوية من إيجاد أنصارها بالشرق الجزائري وذلك لكون العشائر و القبائل كانت تدين بالولاء لشيوخها الذين ينتمون اغلبهم للطريقة الرحمانية المهادئة للأتراك والمتعاونة مع سلطات البايلك والدليل على هذا القول انتقاله الى الغرب الجزائري بعد أن فشل في إيجاد أتباع لطريقة الدرقاوية التي يتزعمها حيث لم ينضم إليه من شيوخ الزوايا والمرابطين سوى من كان ناقما على الباي عثمان مثل محمد بن عبد الله الزيوشي والمرابط بن بغريش [v]
- انتهج البايلك سياسة الترغيب والترهيب التي أعطت نتائج ايجابية ومكنت في آخر الأمر من عزل ابن الاحرش عن اغلب القبائل التي ناصرته في أول الأمر ففي هذا المجال بادر رجال البايلك الى منح مكافآت وإعطاء الوعود تخصيص الهدايا لأعيان المدن وشيوخ القبائل والزوايا الذين ابدوا معارضتهم لابن الاحرش[vi].
- عدم تلقية المساعدات المادية والبشرية من أطراف الخارجية التي وعدته قبل قيام الثورة ونفي الانجليز وباي تونس حمودة باشا ومشايخ الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى.
- إعلان ابن الأحرش ثورة على السلطة الحاكمة قبل أن تنتشر دعوته انتشارًا واسعًا بين أوساط الجماهير وربما يرجع تسرع ابن الأحرش في اتخاذ قراره في إعلان الحرب

هو اعتقا ده أن الظروف كانت مواتية إذ كانت الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر تعاني

من ضغوط الدول الأوروبية [vii]

- تخلي السكان عن ابن الأحرش نذكر من بين‌هم سكان جيجل الذين أوفدوا بأعيان‌هم إلى مدينة الجزائر تحت قيادة المرابط سي محمد أمقران فحصلوا على عفو الداي ثم نقل‌هم الرايس حميدو إلى مدينت‌هم[viii]

ثانيا : نتائج ثورة ابن الاحرش

- خلفت خسائر مادية وبشرية فادحة من أموال وأرواح وأسلحة فلم ينجو الا القليل من جنود الأتراك المؤلفة من أربعة إلا فوق ليل منفرق الزواوة هذا زيادة على ضياع بنادق وترك أربعة مدافع في الميدان وموت الباي عثمان سنة ١٨١٤ م و تفت خزائنه وكلما احتوت عليهم أرزاق وأموال وذخائر.
- اضطراب في الاحوال الاقتصادية حيث اهمل الجانب الفلاحي وتخلالن اسعن الحرث من كثرة الهول والاضطرابات فنزل القحط الشديد اضر بسكان قسنطينة في بسال زرع وقلة الحبوب فقليل من يأتي بها الى الأسواق خاصة الطرقات لانعدام الامن
- حلت بالبلاد مجاعة كبرى سنة (١٨٠٤-١٨٠٥) مست سكان الريف والمدن على حد سواء والتي تعتبر من اخطر المجاعات دامت ثلاثة سنين متوالية أدت إلى هلاك الكثير من الناس إلى درجة أن الناس صاروا يقتاتون الدم والميتة وكل ما هو محرم أكله.
- انتشار حركة تمرد واسعة النطاق في اوساط القبائل الجبلية شملت الجهات الشرقية والوسطى من البلاد الجزائرية حيث تجاوبت معها قبائلا ولا دنايلو الجنوب التي امتنعت عن دفع الضرائب ورفع السلاح في وجه رجال البايلك وزادت من حدة التنافس الانجليز الفرنسي على اكتساب مناطق النفوذ والحصول على امتياز اتبال إيالة الجزائرية هذا ماجعل الكثير يعتقدون في بادى الامر ان ابن الاحرش يتعامل مع الفرنسيين .

- انتشار الأمراض والأوبئة بسبب المجاعة فمات الجل من الناس والعلماء كالعلامة الامام والفهامة الهمام الشيخ عبدالقادر بن السنوسي الذي توفي بمرض الطاعون واخيه الفقيه السيد الهاشمي وغيره موقد تزامن ذلك مع اجتياح الجراد قسنطينة سنة ١٨٠٤ مما أفسد الزرع والثمار .
- اقتنع سكان الأرياف بامكانية الثورة على سلطة البايلك ورفض دفع الضرائب والمطالب المخزنية وعدم الرضوخ لأحكام الجائرة وشجعت بعض الدعاة على التمرد مثل الثائرالذي ظهر بعد ابن الاحرش رجل ادعى انه حفيده وواصل المقاومة في الجهات الشمالية والشمالية الغربية من البايلك.

الخلاصة :

من خلال ما سبق من هذه الدراسة التاريخية التحليلية لثورة ابن الاحرش توصلنا إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- كانت ثورة ابن الاحرش من أهم واخطر الثورات الشعبية في القرن التاسع عشر والتي حملت شعارات دينية وكانت تعبر عن المظالم والقهر التي كانت تعاني منه الأرياف الجزائرية أواخر العهد العثماني وتهدف إلى وضع حد لانتشارها
- تلقت ثورة ابن الاحرش مساعدات من الدول الأوربية كفرنسا الإنجليز وإيالة تونس حمودة باشا إضافة إلى شيوخ ومرابطي الطريقة الدرقاوية

وبالرغم من الدور الذي لعبته ثورة ابن الاحرش من اجل سكان قسنطينة إلا أنها باءت بالفشل حيث نتج عنها خسائر مادية وبشرية وانتشار الأمراض والأوبئة والمجاعات في بايلك الشرق.

II. الثورة الدرقاوية:

قاد إتباع ابن الشريف الدرقاوي ثورة عنيفة ضد الأتراك في بايلك الغرب ولقو تأييدا من القبائل في الغرب وكانت فكرة العصيان من الأتراك موافقة الشيخ مولاي العربي الدرقاوي ولعل ما نسجله على الثورة هو هزيمة قبائل المخزن الموالية للجهة العثمانية أمام القبائل الممتنعة التابعة للدرقاويين تذمر ابن الشريف لشيخه من الحالة التي يعيشها الأهالي خاصة الدرقاويين منهم لأنه كان يقص على شيخه ما هم فيه من إهانة المخزن لهم. رجع ابن الشريف من المغرب إلى الجزائر واشتغل بالتربية والتعليم واستحدث أمورا منها لبس الخزق المرتعة واتبعه خلف كبير خاصة من أهل

الصحراء، فلما توفر له العدة والعتاد استشار شيخه فقال لهم. انصرهم والله ينصرك على القتال ضد الأتراك والمخزن محللا لدمائهم وأموالهم.[ix]

دعى ابن الشريف لنفسه وادعى المهدوية أي أنه المهدي المنتظر وصاحب العصر ويؤكد هذه الحقيقة كل من الزهار والأمير محمد وما جاء في رسالة بعثها الداي عمر باشا إلى السلطان العثماني أن ابن الشريف ادعى المهدوية وخصها، أما واجبهم فهو محاولتنا بإرساله مالا وباق و الأسلحة خصوصا عندما ظهر هذا المهدي الكاذب منذ خمسة عشر سنة في غرب البلاد وشرقها وتبدأ أحداث الدرقاوية في عهد الداي مصطفى العجمي بعض الفشل فتوجه ابن الشريف قاصد المخزن والتقى الجيشان بفرطاسة هزم الباي مصطفى وفر نحو أم العساكر كانت هذه الواقعة بين يوم الأحد الثامن ربيع الأول وتوفي اثر هذه المعركة كل من أحمد بن هطان التلمساني والعلامة أبو عبد الله السيد محمد الغزلاوي.

بعد ما فر الباي نحو معسكر ثم نحو وهران فلحقه بعض العرب فكان كلما اقتربوا منه يأمر من معه بوضع صندوقين من الأموال التي يحملها معه فيشغل العرب بالنهب فإذا أتموا ذلك لحقوا به يأمر بوضع صندوقين آخرين وهكذا إلى أن دخل وهران وأغلق الأبواب.

لما سمع الشيخ مولاي العربي رئيس الطريقة الدرقاوية حاول إخضاع ابن الشريف وإقناعه بالعدول عن مسعاه ولكن هذا الأخير رفض وفي هذا الوقت تدخل الرايس فأرسل ..... وحوله بالجنود فأنسحب الدرقاوي بعد ما خسر بعض من إتباعه ولما عاد إلى معسكر قتل أتباعه وقتلوه.

كانت طبيعة نظام الدولة جمهورا مطلقا بالإضافة إلى تعفن الجهاز الإداري وانتشار الرشوة والفساد، هو أهم سبب لقيام الثورة الدرقاوية ، بالإضافة إلى عدم مراعاة الحكام لوضعية الفلاحين ولطبيعة الإنتاج ولا للوسائل المستعملة ما زاد في تضرر الفلاحين.[(x)]

ومن أسباب فشل الثورة الدرقاوية ونهايتها :

- الصراع القائم بين الطرفين الدرقاوية والقادرية مما جعل هذه الأخيرة تناصر العثمانيين ضد ابن الشريف الدرقاوي
- فشل ابن الشريف في توحيد الجهود مع الطريقة التيجانية بالثورة ضد الأتراك وذلك بسبب الضغوط التي كانت مسلطة عليها من البايلك.
- فشل ابن الشريف وجيشه في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها لمدة ٨ أيام.

III. الثورة التيجانية

إسمه الكامل هو محمد ابن أحمد ابن المختار التيجاني المعروف بمحمد الكبير التيجاني أو التيجني كما ورد في بعض المصادر وهو في قرية عين ماضي قرب الأغواط وقيل أن أجداده من الأشراف، ينتهي نسبهم الى حسن بن علي ابن فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان والده سيد محمد التيجاني رجلا صالحا زاهدا عابدا صاحب طريقة. نشأ أحمد التيجاني وسط عائلة ذات مستوى علمي وانتمائها للتصوف فشب على التدين واتسم بالأخلاق الكريمة بحيث تلقى حفظ القرآن الكريم وهو ابن ٧ سنوات وتلقى مبادئ العلوم على يد شيوخ أجلاء ،بحيث نبغ في علوم الفقه والتفسير والحديث وأكمل دراسة التصوف فسافر في طلب ذلك من بلد إلى آخر حتى بلغ مراده.

أولا : أسباب قيام الثورة

لم يقم الأتراك العثمانيين المناصب بالجزائر حكومة شعبية،بل كان هناك حكام سيعتنون في تصريف أمورهم بالطائفة من الأعوان والوزراء يشرفون على نفر الجند في البر والبحر وفي نفس هذا الوقت كانت البلاد فقيرة جدا وهذا راجع لعدم استغلال موارد الرزق في البلاد، وفي هذه الأثناء انتشر الظلم والزير واحتقار الأهالي والعمل على الاستبداد بالحكم والانفراد دون أهل البلاد الأصليين وإبعادهم عن المناصب الرئيسية لهم إلا ما كان من مناصب ثانوية تافهة ليست ذات أهمية الكبيرة ولا شأن لها كما جعل الأتراك العثمانيون المناصب ولوظائف الحكومة لعليا كلها مقصورة على فئة الانكشاريين واضطهاد السلطة العثمانية للشيخ أحمد التيجاني ومحاولتهم شل طريقة والقضاء عليها.[xi]

لقد أثارت عودة أبناء سيدي أحمد التيجاني إلى البلاد مخاوف السلطة الحاكمة لذا أصدرت أوامرها للباي حسن وهران بأن يراقب تحركات التيجانيين، وتنفيذا لهذه الأوامر خرج باي وهران إلى الجنوب الوهراني لجمع الضرائب فامتنع

أهل عين ماضي عن دفع الضرائب المقررة عليهم وعندئذ قام الباي حسن بمحاصرة قريتهم حتى تم وقوع الصلح بينهما .

تعتبر هذه الحملات المتتالية أحد الأسباب المباشرة التي دفعت محمد الكبير التيجاني الى التمرد ولما أنهى استعداداته وجمع عدد كبير من الأنصار أمر أتباعد بمهاجمة مدينة معسكر ١٨٢٦م، في نحو ٦٠٠ من رجال عين ماضي وأصحاب الزاوية التيجانية ومعهم جمع غفير من الصحراويين والحشم ووصل هذا التأثر إلى معسكر ودخلها ثم خرج منها والتقى بجيوش الباي بجيوشه واشتبك معه في حرب عنيفة، كانت خاتمتها سحق هؤلاء الثوار التيجانيين ومن بينهم محمد الكبير، وتعود أسباب فشل الثورة التيجانية الى نفس الأسباب التي أدت إلى فشل الثورة الدرقاوية.

ثانيا : نتائج الثورة التيجانية

نجم عن تمرد الطريقة التيجانية عدة نتائج منها اتساع الهوة بين السلطة العثمانية والمتصوفة زيادة على سقوط العديد من الضحايا قتلوا بأبشع الطرق بعد إقدام الباي حسن على التصفية الجسدية لكثير من العلماء وشيوخ المتصوفة أمثال الشيخ بلقندوز التيجاني والحاج محمد البوشيفي وكل هذا أدى في الأخير إلى هجرة الكثير من أتباع الفكر الطرقي إلى خارج خاصة المغرب الأقصى إخفاء طابع الشرعية على الثورات الدينية التي قامت من الحكم العثماني، كما أن الخطورة التي شكلها التيجانيون في وجه السلطة العثمانية والتي وصل صداها حتى مقر الخلافة، جعل الحكام والأتراك يكنون العداء والكراهية لتعاليم وعقائد الطريقة التيجانية.لقد ألحقت هذه الثورة أضرار جسمية في التيجانيين حيث قدرت الحصيلة ما بين ٣٠٠ إلى ٦٠٠ وعدد كثير من جيش الباي.[xii]

لقد كان الانسحاب أهل الحشم أثرا بارزا بين التيجانية وهؤلاء بل كان من الأسباب التي جعلت محمد الحبيب يتحفظ من الأمير عبد القادر، بعد الثورة تركز

نشاط التيجانية على مناطق الجنوب وأحكام سيطرتها على طريق الحجيج الرابطة بين المغرب وتونس وبين غرب إفريقيا والمشرق عبر الصحراء الجزائرية.

إن هذه الانتفاضة تعتبر صرخة كبقية الصرخات المقاومة للظلم والجور كما كانت من الأسباب التي أنهكت قوى السلطة المركزية وأضعفتها.

ثالثا : طبيعة ا لعلاقة بين السلطة الحاكمة والطريقة التيجانية

اتسمت العلاقات بين السلطة العثمانية والطريقة التيجانية بالنفور والعداء والمواجهة في آخر الأمر:

١-أسباب توتر العلاقات

بعد رجوع أحمد التيجاني من الحج واستقراره في تلمسان بدأت شعبيته تكبر وأتباعه يزيدون، ويقول صاحب زهرة الشماريخ... فلما رأى والي الجزائر ما وصل إليه التيجاني خشي عاقبة أمره وكتب لمتصرف الصحراء ببسكرة بطرده من عمله وأن يشهر قبائل الأغواط وبني توجين بالبراءة منه أو يبعث الجيوش لحربهم، بقي البايات يلاحقون أحمد التيجاني، حتى أخرجوه من تلمسان.

٢-معارضة السلطة العثمانية لعقيدة التيجانية

بروز الطريقة التيجانية أثارت ضجة في وسط بعض العلماء والفقهاء ودعاة التيار السلفي وبالتالي الحكام، حيث يذكر صاحب زهرة الشماريخ وفي غضون ذلك صدرت منه(التيجاني) مقالات ورأت الحكومة الإقبال عليه، وتوجه الخاصة والعامة إليه فأمرت الباي محمد بن عثمان فتصرف وعقد لذلك المجالس العديد، واختلفت آراء علماء الوقت في شأنه وتضاربت في براءة ساحته وإتمام أفكار العارفين وصدر أمر باعتقاله.

كما نجد في الجوانب الذي بعث به الشيخ محمد عبد الله الجيلالي رئيس مجلس الشورى في بلاط محمد بن عثمان فاتح وهران إلى الشيخ أحمد التيجاني

تشكيك في تعليم وعقائد الطريقة التيجانية، كما تضمنت هذه الرسالة الحذر والاحتياط والنصح للشيخ نفسه.

٣-الدافع الاقتصادي:

تزامن ظهور التيجانية مع إنتهاج السلطة العثمانية سياسة اقتصادية قائمة على الضرائب، بعد أن كانت تعتمد على غنائم البحر، فكان الدافع الاقتصادي إذا وراء تلك الحملات التي قادها البايات على الطريقة التيجانية بعين ماضي، هذه الطريقة التي استطاعت في ظرف قصير أن تجمع ثروة هائلة بفصل تحكمها في التجارة الصحراوية وحمايتها للقوافل، إضافة إلى ما يجمع من الزاويا هذه الثروات أثارت طمع البايات فشنوا عليها الحملات وفرضوا عليها الضرائب الباهظة واستحواذ على خيراتها كلما تمكنوا منها.

٤-لجوء الشيخ أحمد التيجاني إلى المغرب:

كما ضيق البايات الخناق على أحمد التيجاني هاجر إلى المغرب واستقر هناك ولقي كل الترحاب من قبل السلطات مولاي سليمان، حيث استقبله شخصيا ومنحه دار للإقامة فانتشرت دعوته بسرعة حتى في أواسط الطبقة الحاكمة، كما حظيت دعوته بالترحاب والإقبال من حكام تونس لاسيما لقاء التيجاني إبراهيم الرياحي.

هذا التقارب الذي حدث بين التيجانية والحكام في كل من المغرب الأقصى وتونس إضافة إلى الزيارات المستمرة التي كان يقوم أحمد التيجاني بعين ماضي، تلمسان، فاس، في الوقت الذي كانت فيه العلاقات على ما يرام بين هذين القطرين والسلطة العثمانية في الجزائر أثار مخاوف العثمانيين واعتبروه بمثابة مؤامرة سياسية تحاك ضدهم، بالتنسيق مع سلطان المغرب، مما دفعت إلى شن حملات أخرى على عين ماضي بعد عودة أبناء الشيخ التيجاني للاستقرار في الجزائر.

رابعا : موقف العلماء من التيجانية وثورتها

أسفرت ثورة التيجانيين على ردود أفعال متباينة من طرف العلماء بين مؤيد ومعارض لها ولعل من ابرز من عارض تعاليم التيجانية محمد بن عبد الله الجيلالي رئيس مجلس ببلاط الياي محمد لكبير.

إذ يرى أن تعاليم الطريقة التيجانية وعقائدها منافية للسلفية، فقد بعث برسالة إلى شيخ الطريقة التيجانية يحذره وينصحه فيه بالتمسك بمنهج السلف، وبخاصة عندما بلغه أن أحمد التيجاني يزعم أنه لا يوجد من بعد الصحابة رضوان الله عليهم إلى عصره.

و يظهر من رسالة محمد بن عبد الله الجيلالي أن هناك مقالات صدرت عن احمد التيجاني أنكرها عليه بعض معاصريه من أهل العلم، حتى وصل بهم الأمر بالتشكيك في تعاليم طريقته وبخاصة أن أحمد التيجاني، ادعى انه فتح له بطريقتين، مالم يفتح لغيره وبخاصة ولأحمد من قبله من الصحابة وهذا ما جعل البعض من العلماء الوقوف إلى جانب العثمانيين، في محاربة ثورات الطرق الصوفية، ومحاولة الحد من تأثير الطرق الصوفية بالنصح والإرشاد والتوجيه.

لكن ليس العلماء كانوا في صف واحد ضد التيجانيين، فنجد بعضهم من دعم الثورة ومنهم أبو حامد المشرفي الذي لجأ إلى المغرب ١٨٤٤كم، حيث تطرق في كتبه إلى الثورة التيجانية في رحلته الموسومة، اعتبر أن ثورة التيجاني اعتبرها إحدى مظاهر عدم رضا الشعب الجزائري عن الحكم التركي، فقد أشار إلى ذلك بقوله: "ومكان مع ابن السيد أحمد... ومن جاورهم وأعلنوا له النصر.

الخلاصة :

وفي الأخير نستنتج من هذه الثورة ما يلي :

- إن الثورة الشعبية التي قادتها الطريقة التيجانية في بايلك الغرب جاءت نتيجة تضييق الخناق من طرف السلطة العثمانية أحمد التيجاني وإجباره عن مغادرة عين ماضي.

- وعلى الرغم من أن الثورة لم تحقق أهدافها إلا أنها كانت من بين العوامل التي أدت إلى انهيار الحكم العثماني في الجزائر.

- أن تودي الأوضاع السياسية في الجزائر أواخر العهد العثماني جاء كنتيجة لفسادها نظام الحكم مما أدى إلى اضطرابات السياسة الداخلية.

- لقد أصبحت فئات المجتمع الجزائري يبحث عن قوة جديدة يحتمى بها بعد إرهاق من الضرائب من طرف السلطة العثمانية فوجدوا ذلك في مشاريع الطرق الصوفية ومن بينها الطريقة التيجانية.